

الرسالة الأولى

قراءة الكلمة تمكن من قراءة العالم

obeyikandi.com

obeikandi.com

إن أنسب عنوان لموضوع الرسالة الأولى التي أوجهها إلى أولئك الذين يتجاسرون على اتخاذ التدريس مهنة لهم ، هو " المغزى الناقد للتدريس والتعلم " إذ إن التدريس لا وجود له بغير علم ، وأعني بذلك أكثر مما تتطلبه عملية التدريس والتعلم التي يقوم بها المدرسون في الواقع . وما أعنيه من هاتين العمليتين " التدريس " و " التعلم " لا يتحققان ، إلا إذا كان المدرسون على درجة عالية من الوعي المسبق بالمحتوى الذي سيقومون بتدريسه ، وعندهم المقدرة على ملاحظة كيف تعمل قابليات التعلم وحب الاستطلاع ، التي جبل عليها الإنسان عند الدارسين المبتدئين ، وذلك شرط لازم لكي يفهموا فهماً واعياً ما يدرس لهم ، وبالتالي يساعدون أنفسهم على كشف ما غمض عليهم من أمور ، والتمييز بين ما هو حق ، وما هو باطل ، بين ما هو صواب ، وما هو خطأ .

ولن يتأتى لهؤلاء المدرسين أن يكونوا كذلك من خلال تعلمهم من أخطائهم في أثناء التدريس فحسب ، وإنما كذلك من خلال ملاحظة مدى تمتعهم بالتواضع والمرونة الذهنية ، وقدرتهم على مراجعة مواقفهم الفكرية ؛ لأن تعلمهم الحقيقي يكمن في بحثهم عن الطريقة التي تجعلهم متوحدين مع حب استطلاع تلاميذهم ، وما يتوقون إلى معرفته ، وأخذين بأيديهم إلى السبل والمسارات المؤدية إلى ذلك . إن بعض سبل ومسارات حب استطلاع التلاميذ غالباً ما تكون بكرةً ، ولكنها حبلى بالأفكار والتساؤلات التي لم تخطر على بال مدرسيهم من قبل ... إلا أن الملاحظ على المدرسين أنهم لا يفعلون ذلك ، وإنما هم موظفون يؤدون عملاً روتينياً جامداً هدفه ملء أذهان التلاميذ ، وليس تكوين وإثراء خطوات حب الاستطلاع عندهم ، وتنمية حساسيتهم

ووعيتهم ، وقدرتهم على الاكتشاف . ولن يستطيع المدرسون فعل ذلك إلا بقرهم من أفكار وتخمينات وطهارة وحصانة تلاميذهم . وعندئذ يكون أداء المدرسين فرصة ثرية للتعلم في أثناء تدريسهم . ومن هنا فمن الضروري أن يتعلم المدرسون أولاً كيف يدرسون لا كما يدرسون موضوعاً معيناً ، ويعيدون تعليمه كما هو في كل مرة ، أو كما تعلموه في كليات إعداد المعلمين .

والحقيقة أن المعلمين قد تعلموا كيف يدرسون محتوى معرفياً بعينه ، وهذا لا يعنى أنهم يستطيعون تعليم شيء لم يتعلموه . كذلك لا يجب أن يعنى - على أى حال - أنه يؤهلهم ليغامروا في الدخول إلى مهنة التدريس دون أن يمتلكوا الكفايات الضرورية التي أشرنا إليها منذ قليل مسئولية ليست فنية فقط، وإنما هي مسئولية سياسية وأخلاقية ومهنية تضع المدرسين المشتغلين به أمام التزام بإعداد أنفسهم وتطويرها لتحمل هذه المسئولية وأدائها في واقعهم التدريسي اليومي المعيش ، إن التدريس ليتطلب إعداد وتنمية مهنية دائمة ، ومن خلال الخبرة والفهم الواعي لها ، والمبنى على التحليل الناقد لهذه الخبرة ، لتطويرها وإثرائها دائماً .

دعنا نبدأ بتعلم كيف نحلى حقيقة خبرة أولئك الذين أعدوا لمهنة التدريس التي تتضمن بالضرورة "الاطلاع" . وليكن واضحاً أنني لست مهتماً هنا بوصف القواعد التي يجب أن تؤخذ في الاعتبار أو تتبع ، وإنما على العكس من ذلك ، فأنا مهتم بما يتفق وروح هذا الكتاب ، الذي يدور حول نقاط وأبعاد تعليمية معينة ، مشيراً إلى أننا في حاجة إلى شيء ما مختلف ، وعلياً أن نفعله في التربية يوماً بعد يوم ، سواء كنا متعلمين أو مدرسين .

إنني لا أحب أن أعطى انطباعاً إنني أبحث عن الاستحلاء المطلق لقضايا "الدراسة" و " القراءة " و " الملاحظة " و " التعرف " وعلاقتها بالأشياء والموضوعات لمجرد معرفتها ، وإنما سأحاول أن أوضح بعض النقاط الجديدة بإثارة انتباهنا لمزيد من الفهم الناقد لكل هذه القضايا ، والتي أرى إنها عمليات .

ودعنا نبدأ بعملية " الدراسة " التى تتضمن ما يقوم به المدرس من تدريس ، والتعلم السابق والمصاحب لهذه العملية ، وتعلم الطلاب المعلمين الذين يعدون كمدرسين فى المستقبل ، أو أولئك المدرسين الذين يجددون فى معارفهم ليكون تدريسهـم الحالى أفضل مما هو عليه ، أو التعلم الذى يحدث عند أولئك التلاميذ الصغار، الذين يجدون أنفسهم فى المراحل الأولى من تـمدرسهم .

إن إعداد الفرد للتعلم ، والدراسة هو- قبل أى شىء - نشاط ناقد مبدع متجدد، ولا يهم إن كان تعلم المرء يتم من خلال قراءته نصاً يناقش محتوى مقدماً عن طريق مدرسة ، أو من خلال تفكير ناقد يمارسه المرء فى قضية اجتماعية أو طبيعية ؛ لأن هذا الإعداد سيؤدى إلى أن يتمكن المرء من قراءة أى نص يقدمه المرء ، من خلال خبرته الذهنية الخاصة به ، أو من خبرات غيره من الناس قراءة واعية .

ومن المنظور الناقد ، فإن المرء الذى لا يصطنع ثنائية بين المعرفة المرسلـة البديهية أو " الحس العام " والمعرفة الأكثر تنظيمًا رصانة ، نجده يفضل البحث عن تركيب وتآلف المتضادات ، مع أن الدراسة تتضمن القراءة، حتى وإن لم تختزل فى الأخيرة . إن قراءة الكلمة قراءة واعية تمكنا من مراجعة قراءتنا السابقة للعالم ، ولكن القراءة ليست متعة خالصة ، ولا فعلاً ميكانيكياً لاسترجاع وتذكر أجزاء من النص .

وإذا كنت أمارس الدراسة الحقـة ، وأقرأ قراءة جادة .. فإننى لا يمكن أن أطوى صفحة قبل أن أتمكن من فهم معناها فهماً واضحاً . والحل عندى لا يعتمد على مجرد تكرار أجزاء من فقرات من خلال قراءة ميكانيكية مرتين وثلاث مرات، وأربع مرات، مغلقاً عيني ومحاولاً ترديدها ، معتقداً أن هذه القراءة ستمدنى بالمعرفة التى أحتاجها .

إن القراءة لا تعنى ذلك الأداء ، وإنما هى عملية ذهنية صعبة ولكنها ممتعة .

ولا يمكن لإنسان أن يدرس دراسة حقيقية أصيلة ، إذا لم يتخذ من النقد سبيلاً وسيلة فى دراسته أو قراءته التى هى فى نهاية المطاف قراءة ودراسة كاشفة أو مستكشفة ، ذلك أن القراءة بهذه الكيفية ما هى إلا عملية بحث إبداعى ، وفهم واع لما

نقرأ ، وهكذا يصبح التدريس الصحيح للقراءة والكتابة من النقاط الأساسية ذات الأهمية القصوى ؛ لأنه ليس مجرد تعليم القراءة التي نعهد لها ، بل إنه خبرة إبداعية حول الفهم والتواصل الشامل . ونكتسب خبرة الفهم هذه كل العمق إذا استطعنا أن نجتمع المفهومات ، التي تنبثق من الخبرة المدرسية ، وتلك الناتجة من حركة الحياة اليومية مع بعضها البعض بدلاً من تفتيتها وتجزئتها . ويتطلب المران الناقد في القراءة والكتابة أيضاً التحرك السهل إلى التعميم والتجريد محسوساً ومعايناً في الممارسة . ومن إحدى الطرق التي يمكننا أن ننجز بها هذا المران النقاد في أثناء الممارسة ، هي تلك التي أشرت إليها بـ "قراءة العالم" ، التي أعنى بها هنا الفهم الشامل لما يحدث في حياتنا اليومية ، كما تعنى "قراءة العالم" أيضاً ذلك الأداء البحثي لما يتضمنه النص أو الكتاب ؛ بحيث يقودنا هذا إلى قراءة العالم وفهم ما ينطوى عليه من موضوعات وقضايا . ويجب على أن أكون واضحاً أكثر فأقول : إن قراءة العالم المبنية على الخبرة الحسية ليست وحدها بكافية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، لا يجب أن ترفض أو تحمل باعتبارها حداً أدى إلى قراءة ما انتقل إلى العالم المحسوس من مفهومات ، مجردة من خلال عملية التعميم التي ذكرناها سابقاً .

لقد ناقشت إحدى طالبات محو الأمية في حلقتها الثقافية ، رجلاً أبدع "فازة" فخارية في منطقة الشمال الشرقي ، تضمنت المناقشة قراءة لسلسلة من المفهومات ... ، هي في حقيقة الأمر ليست إلا تمثيلاً للواقع المحسوس الذي هو الثقافة .

وظهر مفهوم الثقافة من خلال جهود الجماعة أو الحلقة الثقافية في سبيل "الفهم الشامل" الذي حدد ملامح قراءة الكلمة أو "العالم" .. لقد أفضت الذاكرة الخيرية السابقة للمرأة ، وكذلك فهمها الحسي للعملية التي أبدع بها صانع الفازة الفخارية ، أفضت إلى أن تشكيل هذه الفازة الفني كان نوعاً من نتاج العمل الحيوى ، الذي يجعل الحياة له ولأسرته ممكنة .

وإذا تجاوزنا الخبرة الحسية إلى ما وراءها ، فسند المرأة طالبة الأمية المشار إليها قد خطت خطوة أساسية ؛ بحيث وصلت إلى القدرة على التعميم التي شكلها : "خبرتها

المدرسية" إن إبداع فائزة من الفخار حول عمل الخزاف هذا هو وسيلة للبقاء ، وفي الوقت نفسه إبداع فني وثقافي . ولهذا السبب ، ومن خلال استدعائها قراءتها السابقة للعالم ، جعلت مبدع الفائزة يصيح بكل الفخر والاطمئنان قائلاً " لقد أبدعت ثقافة ، إنني صنعت هذه " .

ولقد أتاحت لي فرصة مشاهدة خبرة مماثلة للخبرة السابق ذكرها من منظور ذكاء سلوك الناس وكثيراً ما أشرت إليها في كتاباتي السابقة ، ولكن لا بأس من ذكرها مرة ثانية هنا .

لقد وجدت نفسى جزيرة "ساو تومي" في خليج غينيا بالساحل الغربى الإفريقى ، وكنت بصحبة مربين محليين فى أول برنامج لتنميتهم كمعلمين لحو أمية الكبار .

وقد اختارت اللجنة الوطنية قرية : "بورتومونت" ، وهى قرية صيادين، لتكون مركزاً ذلك النشاطات البرنامج التدريبي . واقتрحت على المتدربين المحليين أن البرنامج سوف لا يتبع طرائق تقليدية ، معينة كتلك التى تفصل النظرية عن التطبيق ، كما أننا لن نرتبط بأى نوع من العمل أو النشاط يفصل أساساً بين النظرية والتطبيق ، سواء بالتقليل من أهمية النظرية ، أو بإنكار أهميتها ، أو عن طريق مجرد التركيز المكثف على الجانب التطبيقى باعتباره الشيء الوحيد الذى يوضع فى الحسبان ، أو بتفويض دعائم التطبيق بتسليط الضوء بشكل مكثف أيضاً على النظرية . وعلى النقيض من ذلك ، كان فى نيّ منذ البداية ، أن أقوم بتجربة مباشرة للتناقضات القائمة بين النظرية والممارسة ، والتى ستكون موضوعاً للتحليل فى إحدى رسائلنى .

لقد رفضت لهذا السبب جدولاً يختزل بداية البرنامج لما فيما يطلق عليه عرض محتوى نظرى أساسى لتنمية وتدريب معلمى الكبار فى المستقبل . ويعنى هذا فى الأساس أن تحجز المواعيد للمتحدثين ، الذين يعتبرون أكثر قدرة من غيرهم فى هذا المجال قبل غيرهم من الناس .

كنت أفكر في نشاطات متتابعة .. فيمكننا أن نناقش في الصباح بعض المفاهيم المفتاحية على سبيل التقديم مثل التصنيف والتحليل والرؤية ، ولكن بطريقة كافية ومتقنة لا نحتاج بعدها لتقديم آخر لهذه المفاهيم ، إذ إن ما هو مطلوب وملح كان يتمركز في مناقشة ناقدة للممارسة ، ينخرط في أداؤها المربون والمعلمون .

وهكذا ، مع تلك الفكرة الأساسية التي قبلت ، ووضعت موضع التنفيذ ، فإن معلمى المستقبل كان عليهم أن يقوموا بتنسيق مناقشة حول موضع التنظيم في حلقة ثقافية ، مكونة من خمسة وعشرين مشاركاً ، مدركين أن النشاط موجه إلى التنمية المهنية لمعلمى ومربى الكبار ، وقبل ذلك عقدت لهم مناقشة حول الطبيعة السياسية لمهنتهم ، وعرفوا أنهم مقدمون على العمل مع أفراد ناضجين في عملية قوامها التنمية المهنية ، وعرفوا كذلك على أنه لم يسبق لهم ولا للمدرسين الذين سوف يعملون معهم أن فعلوا شيئاً مثل ذلك الذى يسعون إلى فعله . والاختلاف الوحيد الذى يميزهم كان متمثلاً في أن المشاركين في الحلقة يمكنهم أن يفروا من العالم ، فى الوقت الذى يكون فيه المدرسون الشبان فى أثناء التدريب يقرأون الكلمة جيداً ولم يسبق لهم - على أية حال - أن ناقشوا معهم التصنيفات فى حلقات ثقافية ، أو قاموا بالتدريس فى مجال القراءة والكتابة للكبار من قبل .

وفى أصيل يوم من أيام البرنامج ، كان يكلف أربعة من المتدربين بالعمل فى جلسة لمدة ساعتين مع خمسة وعشرين مشاركاً ؛ أما هؤلاء المسئولون عن البرنامج ، فيراقبون ويتابعون سير البرنامج ، ويسجلون ملحوظاتهم . أما عن النظرية وراء هذا النشاط الذى يقوم به المتدربون .. فإنها توضح لهم فى برنامج اليوم التالى خلال أربع الساعات المخصصة للتقويم ، والحلقات النقاشية للتنمية ، وحين يتم تناول الأخطاء والهئات والجوانب الحسنة والسيئة فى آرائهم بحضور كل أعضاء المجموعة ، وبهذه الطريقة .. فإن الأخطاء التى تم تحليلها يصعب تكرارها من الجماعة ، وهكذا وتنبثق النظرية من خلال الممارسة الجيدة .



وفي أثناء إحدى جلسات الأصيل هذه ، وكانت المناقشة حول اللوحة المرسوم عليها قرية "بورتو مونت" بيتوها القليلة الممتدة على طول شاطئ الخليج مواجهة للمحيط ، والصيد الذى ينطلق من قاربه ممسكاً سمكة - وإذا باثنين من المشاركين يقفان - كما لو كان قد خططاً لذلك ، ويتجهان نحو نافذة المدرسة التى كنا فيها ، ويواجهان اللوحة المرسومة لها مرة ثانية ويقولان : (نعم هذا هو ما تشبهه "بورتومونت" ، ولم نكن نعرفها من قبل على حقيقتها!) ومعنى هذا ألفتهم لسياق قرابتهم لم تمكنهم من رؤيتها على ما هى عليه ، ولكن عندما ابتعدوا عن الموضوع بعض الشيء ، استطاعوا أن يقرأوا عالمهم هذا قراءة جديدة ، أوقفتهم على حقيقة قرابتهم بدرجة افضل . وهذه القراءة الجديدة أعادت خلق قراءتهم السابقة ، الأمر الذى جعلهم يقولون (نعم هذا هو ما تشبهه "بورتومونت" ، ولم نكن نعرفها من قبل على حقيقتها!) لقد انغمسوا فى حقيقة عالمهم الصغير ، ومن ثم تمكنوا من فهمه والوعى به فهماً ووعياً حقيقياً .

إن مفهوم الدراسة إنما يعنى أن تكشف وأن تحرز فهماً دقيقاً للموضوع الذى تدرسه ؛ وأن تتحقق من علاقته بالموضوعات الأخرى . ويقتضى هذا أن يكون الطلاب قادرين على المغامرة والمخاطرة التى هى لزوم التعلم؛ إذ بغير ذلك لا يستطيعون الإبداع ولا الابتكار .

ولهذا السبب أيضاً ، وكما سبق لى أن ذكر عدة مرات ، إن التدريس ليس عملية نقل للمعرفة من المدرس إلى المتعلم نقلاً ميكانيكياً . وهذا ما انتقدته دائماً ، ومازلت انتقده . والدراسة الناقدة مرتبطة بالتدريس الناقد الذى يتطلب بالضرورة طريقة وأسلوباً للفهم الناقد ، والقراءة الواعية للكلمة والعالم ، القراءة الواعية للنص وللواقع المعيش .

إن طريقة الفهم الناقد والتحقيق من قراءة الكلمة والعالم لا تعنى تجاهل اللغة البسيطة العادية على اعتبار أنها تكونت من مفهومات تخلقت ونمت يوماً بعد يوم من خلال الخبرة الحياتية المحسوسة . هذا من ناحية ، كما أنها لا تعنى الابتعاد عن مفهوم

"اللغة الصعبة" أو المستحيلة مثل ما يحدث في المفاهيم المجردة . وهذه الطريقة في الفهم والقراءة الدقيقة للنص والسياق لا تستبعد تنوع اللغة ولا تراكيب الجمل ، وتضع في اعتبارها أن المؤلفين يستخدمون لغة علمية وأكاديمية ، لا ينبغي التدني في تبسيطها وسهولتها في محاولتهم جعلها في متناول القراء من حيث الوضوح والسهولة والبعد عن التعقيد ، والغرابة .

وليس لأحد من القراء الحق في أن يتخلى عن قراءة نص لأنه صعب ، ولم يفهم معنى كلمة وردت فيه من مثل كلمة " علم المعرفة Epistemology " ؛ لأن الطلاب يحتاجون إلى بعض أدوات أساسية تعينهم على القراءة والكتابة الفعالة من مثل القواميس بأنواعها المختلفة كالتى تبحث في أصل وتاريخ الكلمات ، والتى تركز على تصريف الأفعال ، وتلك التى تبحث في الأسماء والصفات ، وتلك المتخصصة كالمعاجم الفلسفية، وتلك التى تبحث في المترادفات اللفظية وتصنيفها ، ودوائر المعارف .. كذلك فإنهم يحتاجون إلى قراءات في نصوص مقارنة ولمؤلفين مختلفين يعالجون الموضوعات نفسها ، حيث يكون الاختلاف بينها في الأساليب والتراكيب اللغوية من حيث سهولتها وصعوبتها . ومثل الطلاب في احتياجهم لهذه الأدوات مثل البنائين الذين لا يستطيعون تشييد بناء سليم إلا إذا توافرت لهم الأدوات المناسبة لذلك .

ولا يعنى استخدام هذه الأدوات أنه مضيعة للوقت كما يفكر بعض الناس ، لأن الوقت الذى يستثمره الطالب في استعمال المعاجم ودوائر المعارف في أثناء قراءة النصوص أو كتابتها سوف يساعده في إحراز مزيد من التحليل الناقد للموضوعات . وهذا عنصر أساسى لجعل مهمة القراءة والكتابة ، التى يقوم بها الطالب مهمة ممتعة ولها مردود إيجابى فى تكوينه .

ونحن عندما نقرأ كتباً أو نصوصاً لا نتوقع من كاتبيها ، ولا نطلب منهم أن يؤدوا مهمة الكتابة ليشرحوا لنا كل خطوة ، ويبينوا لنا فى هوامش كل ما غمض علينا ، حتى نفهم النص المكتوب دون عناء ولا بذل أدنى جهد . ولكن واجبهم أن يكتبوا فى

لغة سهلة ويسيرة ؛ حتى يتمكن القارئ من إحراز الفهم بنفسه ولكن دون إلغاء وظيفة القارئ الأساسية وهى الفهم الناقد لما يقرأ.

إن القارئ لا يفهم ما قرأ أو درس فجأة وفى إيجاز حاد وخارق ، ولكن عملية الفهم تتطلب جهداً ذهنياً مقصوداً من أولئك الذين يتصدون للقراءة والدراسة الجادة والواعية ، مستخدمين فى ذلك الأدوات المناسبة لإنجاز مهمتهم ، ونعنى بها القراءة الناقد الواعية ، وهى مهمة تتسم بالتحدى ، وتتطلب صبراً ومثابرة وهى ليست مهمة أولئك المتعجلين المتعجرفين المتعاليين ، الذين ينقصهم التواضع فى طلب العلم ، وينقلون ضعفهم إلى المؤلف الذى يلومونه على أن ما كتبه من الصعب دراسته .

ومن الأهمية بمكان أن أوضح هنا ، أن ثمة علاقة بين محتوى الكتاب ومستوى ذهنية القارئ ؛ أى إن هذه العلاقة تعتمد على الخبرة الذهنية لكل من القارئ والمؤلف لأن فهم ما قرأه القارئ مرتبط بهذه العلاقة ارتباطاً وثيقاً . وإذا غاب هذا الارتباط بين كل من القارئ والمؤلف .. فإن المرء لا يمكنه أن يفعل شيئاً مع الآخر ، وكل الجهود المبذولة لفهم النص المكتوب لا جدوى منها . وفى مثل هذه الحالات لا يوجد انسجام بين وجهة نظر كل من المؤلف من حيث معالجته للموضوع ، ومقدرة القارئ على فهم اللغة التى تتطلبها معالجة الموضوع . ولذلك يأتى معنى أن الدراسة فى الأساس هى إعداد للمعرفة ، وأن هذا الإعداد يتطلب من بين ما يتطلب تدريجاً على الصبر عند الشخص ، الذى ينوى القراءة الناقدة الفاهمة ، وأن يقر فى ذهنه أن إدراك المعرفة لا يتم دفعة واحدة ، وإنما تحتاج نضالاً من أجل جدولة الزمن وتنظيمه للحصول عليها .

إن قضية أهمية استعمال الأدوات والمراجع اللازمة لتحقيق مهمة القراءة والكتابة لتثير ضرورة توفير المعاجم ودوائر المعارف المكلفة فى مكتبات المدارس لكل من التلاميذ والمدرسين باعتبارها حقاً أساسياً يجب توفيره ، دون أن يرهقهم ذلك اقتصادياً لاقتنائها نظراً للتكلفة الباهظة ، وهذا واجب على المدارس تحقيقه اتساقاً مع حق كل من التلاميذ والمدرسين فى المعرفة ، وواجبهم فى تحصيلها .

وأود الآن أن أعود إلى شيء عدت إليه قبلاً، ألا وهو العلاقة بين القراءة والكتابة، وهما العمليتان اللتان لا ينبغي أن تفصلا عن بعضهما البعض . ويتعين علينا أن ننظمهما بطريقة تعتبرهما كما لو كانتا سبيلاً إلى خلق نفاذ البصيرة الذي يحتاجه كل من المدرسين والتلاميذ ، كما أكد ذلك " ليف إس فيجو تسكاى " وهو أن نفاذ البصيرة يحتاج إليه التلاميذ الصغار ، كما نحتاج إليه نحن الكبار .

ومن المعروف مبدئياً ، أن التعبير الشفهى يسبق التعبير الكتابى عند الإنسان ، ولكن التعبير الكتابى يتضمن التعبير عندما يصير الناس قادرين على التعبير عن أنفسهم من خلال الرموز أو الحروف ، سواء تحدثوا عن أحلامهم ، ومخاوفهم ، وخبراتهم الاجتماعية ، وآمالهم ، وممارساتهم .

وعندما نتعلم كيف " نقرأ " فإنما نمارس قراءة ما يكتبه الآخرون ، الذين سبقونا في الكيفية التى تعلموا بها كيف يقرأون ويكتبون ، وأتقنوا ذلك فأنتجوا لنا ما نقرأه لهم . وكما أننا نتعلم كيف نقرأ ، فإننا نعد فى الوقت ذاته لنكتب ما نتكلمه فى حياتنا الاجتماعية .

ولقد استقر عند علماء التربية أن الإنسان فى المجتمعات ذات الثقافة المكتوبة من الصعب ، بل من المستحيل عليه أن يدرس ، وأن يبحث عن المعرفة ، وأن يستكنه حقيقة الأشياء المحيطة به ، وأن يعرف معرفة ناقدة أسباب وجود الأشياء وكونوتتها .

ومن الأخطاء التى تقع فيها غالباً أن نفصل بين ما بين القراءة والكتابة حتى مع الأطفال ، الذين يبدأون أولى خطوات القراءة والكتابة، متصورين أن هناك انفصلاً بين عملية القراءة والكتابة وعملية المعرفة عند الإنسان بشكل عام . وهذا الفصل بين القراءة والكتابة يلازمنا إلى الأبد طلاباً ومعلمين لأنه أصبح عادة تعليمية ، ولقد سمعت تعليقاً يؤيد ذلك من أحد الطلاب المتخرجين فى الجامعة يقول : " إننى لأجد صعوبة هائلة فى كتابة أوراقى ، إننى لا أستطيع الكتابة " . وهذا التعليق أسمعته من طلاب الجامعة كثيراً وبخاصة إننى أعمل أستاذاً جامعياً وثيق الصلة بطلابه، ولقد عكس هذا الأمر - بكل تأكيد - الحقيقة المحزنة .

ومن الضروري أن نأخذ في الاعتبار الامتلاك النقدي لتكوين ذواتنا ، والذي يتشكل اجتماعياً ، بالتدرج مع الزمن ، ليكون قوة ناشطة واعية تتكلم وتقرأ وتكتب ، وأن هذه السمات في جوهرها إنما تحدث بفعل التشكيل الاجتماعي . وبعبارة أخرى ، علينا أن ندرك أننا لسنا موجودين فحسب ، بل علينا أن نفتتح في أنفسنا بأننا كائنات " مبرمجة للتعلم " كما عبر عن ذلك (فرانسوا جيكوب) . ومن ثم علينا أن نتعلم كيف نتعلم ، وهذا يعنى أيضاً أن ندرك من بين ما ندركه ، أن كلاً من اللغة الشفاهية واللغة الكتابية متساويتان في أهميتهما الموضوعية .

ويقتضى الأمر أن يسعى أولئك الذين يدرسون وأولئك الذين يعلمون ويدرسون ألا يقتصروا على قراءة النصوص ، بل عليهم أن يتبعوا قراءتها بتدوين ملاحظات ومذكرات ، وتقارير عن الكتب المقروءة ، وأن يؤلفوا بعض النصوص حول ما قرأوه . وعلينا جميعاً أن نقرأ كتابات المؤلفين والروائيين والشعراء والعلماء والفلاسفة المتميزين ممن يجهدون أنفسهم في توظيف لغتهم بحثاً عن الجمال والبساطة والوضوح .

ولو أن مدارسنا قد تفرغت منذ الصفوف الأولى للتلاميذ إلى تغذيتهم دون القراءة والكتابة ، وإلى استمرار تلك التغذية خلال مراحل التعليم المختلفة ، فمن المحتمل إلى حد كبير ألا نجد من بين خريجي الجامعة من نتحدث عن عجزهم عن الكتابة ، أو عدم ثقتهم وطمأنينتهم في ممارستها .

ولو أن الدراسة لم تكن عبئاً علينا في معظم الأحوال ، ولو أن القراءة لم تكن واجباً مر المذاق ، ثم لو أنه على النقيض من ذلك غدت الدراسة والقراءة مصادر للمتعة والسعادة ، فضلاً عن كونها مصادر للمعرفة التي تحتاجها للتحرك أماماً في هذا العالم ، لو أن هذا كان حادثاً في مدارسنا ، لاستطعنا تحقيق مؤشرات أكثر دلالة على نوعية تعليمنا .

إن هذا جهد ينبغي أن يبدأ به في المدرسة الثانوية ، وأن يُعنى بتعميقه في تنمية القرائية ، وأن يتواصل دوماً دون انقطاع .

ولعله لا يمكن إنكار الأهمية البالغة لقراءة كتابات جان بياجيه ، ومنتسورى وإريكسون وغيرهم من المعزدين بنمو الطفولة ، إلى جانب كتابات المتخصصين الذين يعالجون قضايا العمليات القرائية ذاتها .

وإذا ما فكرنا في العلاقة الحميمة بين القراءة والكتابة والتفكير وفي حاجتنا إلى خبرة عميقة بهذه العلاقة ، فيبدو لى أن اقتراحى بأن نخصص ثلاث فترات أسبوعياً نتفرغ فيها لكتابة موضوع ما اقتراحاً مقبولاً . وقد تكون هذه الكتابة من نوع تدوين مذكرات حول كتاب قرأناه ، أو تعليقاً على ما سمعناه أو شاهدنا فى وسائل الإعلام ، أو رسالة لشخص لا نعرفه جيداً . أو أى شيء آخر ، فالهم ألا نقطع عن ممارسة الكتابة ولعله يكون مفيداً أن ندون تاريخ هذه الكتابات ونحتفظ بها ؛ لكى نعود إليها بعد أشهر قليلة لتحليلها بصورة نقدية .

لا أحد يستطيع أن يكتب إذا لم يمارس الكتابة مطلقاً ، كما لا يستطيع أن يسبح أى شخص إذا لم يمارس السباحة .

وإذا كنت قد ركزت على قيمة ممارسة الكتابة ، ومعها القراءة بطبيعة الحال ، لارتباطها بالتنمية المادية فى المجتمع ، فأود أن أؤكد أن هذا التركيز ليس صادراً عن موقف مثالى . والواقع إننى حين أرفض أى تفسير ميكانيكى للتاريخ ، فإنى أرفض أن أقدم تفسيراً مثالياً له .

فالتفسير الأول يختزل الوعى على أنه نسخة أو انعكاس للتشكيلات والبنى المادية للمجتمع ، أما التفسير الثانى فإنه يخضع كل مجريات الحياة إلى وعى قوى طاغ . ولكن موقفى مغاير لهذا وذاك ؛ إذ إننى أدرك أن العلاقة بين الوعى والعالم هى علاقة جدلية .

وليس من الملائم لنا أن ننتظر التحول المادى فى المجتمع، قبل أن نشرع فى مواجهة مشكلة القراءة والكتابة بصورة صحيحة . إن القراءة الناقدة للنصوص وقراءة العالم إنما تهتم بالتغيرات الجارية فى داخل كل منهما .